جبل النار

قصة من تاريخنا الذي نكتبه الآن
بقلم الأستاذ علي الطنطاوي

... لما سمع الساعة تطن انتبه لها ، فلما أيقن أنها (الثانية) وثب من الفراش ، ومشى إلى الشرفة فأطل منها ، فمس وجهه نسيم السحر الناعش ، فجعل ينشق منه ويعب عبًّا ويملأ رئتيه ، حتى إذا روى منه نظر إلى المدينة فرآها نائمة ، لا يسمع في رحابها صوت ، ولا يلمح خلالها نور ، فاطمأن إلى هذا السكون ، وأدنى منه كرسياً فجلس عليه متلفعاً بعباءته ... وجعل يحدّق في الطريق كأنه يرقب طارقاً يطرقه ، حتى طال عليه الانتظار ، وخيّل إليه أن الفجر قد سدت عليه المسالك أو حيل بينه وبين الطلوع ، ورأى الليل ثقيلاً ، فأحس كأنه منيخ عليه بثقله ؛ وزاده ضيقاً أنه جالس في الظلام لايستطيع أن يوقد السراج لئلا يوقظ أهله فيفسدوا عليه الأمر الذي انتواه واعتزمه ، وهجر لأجله فراشه وجلس في شرفته يرقب رفيقه الذي يسعده على تنفيذه ، ولم يكن (في الواقع) نائماً ، ولم يخالط النوم هذه الليلة جفنيه ، وإنما اضطجع ساعة من أول الليل يوهم أهله أنه نائم ، فلما اطمأن إلى أنهم هجعوا نهض فأعد ثيابه ، وهيأ عدته ، ثم استلق على الفراش يحلم بالحياة التي يقدم عليها ، ويفكر فيها حتى لقد أصابه من السهر والفكر صداع أليم لم يكن له بمثله عهد . وكان (عرفان) أصغر أبناء أبيه الغني المترف ، وأدناهم إلى قلبه ، وكان لأمه عطف عليه ليس لأحد من إخوته الكبار مثله . فكان الصبي المدلل المحبوب ، الذي إذا سأل أعطى ، وإذا أمر أطيع ، وإذا أبى شيئاً لم يكن ، وإذا أراد شيئاً كان ، وإذا اشتكى اضطربت الدار ، وأسرع الأقرباء ، ودعي الأطباء ... وكان عرفان (على هذا) ذكياً مهذباً ، متقدماً في مدرسته ، مجلياً بين أقرانه ، فتاناً بأدبه وخُلقه، كفتنته بجماله وخَلقه، فهو في الرابعة عشرة ولكن جسمه الأبيض القوي جسم فتى أناف على السابعة عشرة ، له عينان حوراوان ، وأنف دقيق صغير ، وفم كأنه زر ورد أحمر ، ولكن عطره بليغ الكلم ، وشريف القول . وكان ديّناً صيّناً نشأ على طاعة الله ، وأقام الصلاة وآتى الصدقة ، وما تعمد منكراً من الفعل ، ولا زوراً من القول ، فكان عرفان بهذه المزايا زهرة اللدات ، وزينة الفتيان ...

أما الفتى الذي ينتظره عرفان ، فهو رفيقه مختار ، وهو قروي في السابعة عشرة من عمره ، أسمر شديد السمرة ولكنه جميل الصورة ، دقيق الملامح جذاب ، وكان شجاعاً صاحب دين وشرف عرفه عرفان في المدرسة طالباً ممتازاً ، فلم يلبث أن جعله رفيقه وصفيه ، وخليله المصطفى ، وصديقه المختار

***

لبث منتظراً على الشرفة حتى بدت طلائع الفجر فأدركه اليأس ، وخامر نفسه ألم الخيبة ، فأزمع أن يمضي وحده ، وألقى على الطريق نظرة الآيس فإذا هو بمختار ، مختار بعينه ... فكاد يطير

من الفرح، وأشار إليه أن ينتظر وحمل عدّته ومشى على رؤوس أصابعه، يبتدر الباب، فلما مر بإخوته وهم نيام أدركته العاطفة تخاف أن يغلب عليه حبه لهم وتعلقه بأبويه، فحبس العاطفة في أعماق نفسه واستودعهم الله . . . إلى . . . إلى غير ما رجعة، فما يعلم أحد إلا الله ماذا يكون نصيبه من هذا السفر.

ومضى هو ورفيقه يجتازان أزقة البلدة حذرين يترقبان لا ينبسان بكلمة، حتى إذا صارا إلى الفضاء وأمنا بعض الأمن، افتتح مختار باب الكلام فقال لعرفان:

— ماذا تظن أباك فاعلا إذا هو تيقظ فلم يجدك في الدار؟

فلم يجب عرفان وإنما كان يصغي إلى صوت المؤذن يمشي في سكون الليل مشي الغناء في الأعضاء فتترنح منه الأشجار طرباً، ويؤخذ به الكون مفتوناً . . . ويردد ما يقول المؤذن بصوت خافت ولكنه مملوء بالإيمان والثقة بالله: حيّ على الصلاة! حيّ على الفلاح! الله أكبر! الله أكبر! فأصغى إليه مختار وجعل يردّد الحيعلة والتكبير ... فلما انتهى الأذان وشمل الكون السكون كرة أخرى مالا إلى رحبة قريبة فوقفا يصليان وكانا (كما وصفت) شابين دّينين تقيّين فنسيا حين صليا الدنيا بما فيها. ولما انفتلا من الصلاة سارا صامتين يذكران الله سراً، وكأن هذا الشعور السامي الذي ملكهما، وهذه المراقبة التي أقبل عليها قلباهما قد أحالتهما من طالبين صغيرين إلى مسلمين من المسلمين الأولين الذين عرفوا الله، وأدركوا غاية الحياة فصاروا سعداء إن عاشوا لأنهم يعيشون لهذه الغاية، وسعداء إن ماتوا لأنهم يموتون في سبيل هذه الغاية ...

وأي رجل يذوق حلاوة الإيمان ثم لا يرى نفسه أكبر من الدنيا، وهو لا يرى في الدنيا إلا جناح بعوضة؟ أفليس أكبر من جناح بعوضة؟ ومن يعرف حلاوة الإيمان ثم يتعجب من المسلمين الأولين حين خرجوا ليفتحوا الدنيا بسيوف ملفوفة بالخرق ويقابلوا ملوك الأرض بطائفة من البدو . . . أو يعجب من هذه الفئة من أهل فلسطين حين تقاتل أعظم دولة في التاريخ الحديث، ولو اجتمع أهل فلسطين كلهم بنسائهم ورجالهم وأطفالهم ما ملأوا حياً واحداً من عاصمتها؟ لا. لا تعجبوا من ذلك، بل اعجبوا من مؤمن لا يرى نفسه أكبر من أكبر دولة في الدنيا وهو جندي في دولة الله، ودولة الله أكبر من كل دولة، لا إله إلا هو، له الملك وله الأمر وإليه ترجعون!

* * *

وابتعدا عن البلدة وهما صامتان لا يتكلمان، وعرفان يفكر في أبويه اللذين خلفهما يتجرعان الغصص لفقده، ثم يذكر الواجب فيطمئن إلى أنه أحسن صنعاً حين خرج مجاهداً في سبيل الله، ولكن عاطفته لا تهدأ ولا تقر، فيحاول أن يتسلى بهذه المناظر الفتانة التي تبدو له في هذه الغداة الباكرة في غاية الجمال، فلا يبكيه شيء فيندفع يغني بصوت خافت حزين هذه الأغنية المعروفة . . .

« ياوالديّ سيصدع موتي فؤاديكما وستسكبان الدموع غزاراً، ولكن تراب قبري سيجف فتجف معه دموعكما، ويلتئم صدع قلبيكما ... »

« وأنت يا أختي ... ستنسيك الأيام ذكرى أخيك الشهيد، وستمحى سطور الحزن من صفحة نفسك ..

وأنت يا جـدى الشيخ ، ستنسى حفيدك المفقيد ... »

« ولـكن أخى لن ينسانى ... »

« أنت يا أخى ستظل ذكراى بين عينيك حتى تثأر لى من قاتلى ، وتنضح قبرى الجاف بدم القاتل »

« وأنت يا أخى الأصغر ... لن تنسانى حتى تضطجع إلى جانبى »[1]

فلا يختم أغنيته حتى تلعب هذه الخاتمة الشجية التى تحط على النغم (الأصبهانى) بقلب مختار فتثيره وتهزه فيقول لعرفان :

— ولـكنك جرعت أبويك كأس الآلام ، فشرباها منذ اليوم حتى الثمالة ...

فيجيب عرفان حزيناً واهياً :

— أعرف ذلك

وتكون فترة يصمتان فيها فلا يسمع إلا وقع أقدامهما المجلة على حجارة الطريق الوعر المهجور الذى تخيراه . ثم يقول عرفان :

— أعرف أنى جرعت أبى كأس الأحزان ، ولكن ما ذا أصنع ؟ أليس لله علىّ حق أكبر من حق أبى علىّ ؟ أنسيت يا مختار ما ذا قال مدرس الدين حين شرح لنا قول نبينا محمد صلى الله عليه وسلم « من لم يغز ولم يجهز غازياً ، ولم يخلف غازياً فى أهله بخير أصابه الله بقارعة قبل يوم القيامة » والحديث الصحيح « لا يجتمع على عبد غبار فى سبيل الله ودخان جهنم » والحديث الآخر : « مثل المجاهد فى سبيل الله كمثل الصائم القائم القانت بآيات الله لا يفتر من صيام ولا صلاة حتى يرجع المجاهد »

ألم يقل لنا إن الجهاد فى هذا العصر أفضل منه فى العصور الأولى ، لأنهم كانوا يجاهدون ليضموا إليهم إخواناً وبلاداً ونحن نجاهد لندفع الموت عن أنفسنا وبلادنا ، والجهاد فى فلسطين أفضل منه فى البلاد الأخرى ، لأنها لم تمْنَ بلدة بمثل ما منيت به فلسطين حين دخل عليها اللصان ، فلبس أحدهما جبة الحاكم فقضى وهو اللص ... وارتدى الثانى رداء التاجر فاشترى ... وهو السارق ... وكان خلاصة الأمر كله ، أن تقول للمالك : قم فاخرج من دارك لنعطيها لهذا السارق ، أو ... أو نهدم دارك ، ونقطع رأسك

— رحمه الله — هذا ما قاله بالحرف . لقد كان .

— لقد كان ؟ أتعنى أنه مات ؟

— لا . ولـكن سفح دمه على أرض الحرم الأقدس ؟

— ؟ ؟

— لقد شنقوه ، شنقوه لأنه حمل مسدساً .

— أو لا يرون (أولئك) يحملون المسدسات والمسبعات جهاراً نهاراً ، فلم لا يشنقونهم ؟

— (أولئك) من الشركاء — ولـكن مالنا نتألم ؟ من كان مع الله فلا يحزن ، أتشك فى وعد الله ؟

— لا والله ما شككت ، ولـكني أفكر فى أستاذي ، رحمه الله ، أيشنق عالم جليل فلا يتحرك له أحد ؟ وهؤلاء الذين يحملون راية الدين ، ويملـكون الحول والطول ، وتسير بأمرهم الجيوش . . . أما

(١) أصل فكرة هذه الأنشودة لتولستوى

بين أضلعهم قلوب تعرف الايمان — فتحركهم إلى نصرة المظلومين ؟ ..

— ولم ؟ وهل ضعفنا أو جبنا ؟ إن هذه البلاد ياصديقي متعودة ، متعودة الحرب . ألم ترد جيوش أوربة كلها في يوم من الأيام ؟ فماذا ينقص الأبناء عن الآباء ؟ أنسينا ؟ إن نسينا ذكرتنا بتاريخنا هذه الجلاميدوهذه الأصلاد — وذكرتنا أجنادين ، وذكرتنا حطين ، واسم صلاح الدين ؟ ان الارحام التي ولدت صلاح الدين لا تزال تحمل وتضع ، وان الله الذي نصر صلاح الدين هوالله ، « إن الله يدافع عن الذين آمنوا » فلتدافع عن (أولئك) الدولة صاحبة الأساطيل ، أو فليدافع عنهم الانس والجن ، إن الله يدافع عن الذين آمنو ، والله أكبر !

— ولكني أخشى عليك ياعرفان، أنت ابن الترف والنعيم ، نشأت تتقلب في ثياب الحرير ، وتنام على ريش النعام ، فكيف تنام غدا على الحجر والمدر ، وتصبر على الجوع والعطش ، وتحمل لذع الشمس ووقع الرصاص وحر السيوف، إنها الحرب ياأخي، إنها الحرب ، ليست جولة كشفية ، إلى اليمين در ، إلى الأمام سر ، ثم تعود إلى بيتك فتجد حمامك مسخنا ، وطعامك مهيئا ، وفراشك موطئا . إنها الحرب ليست هزلاً ولا لعبا ، أفتستطيع أن تمضي يومك في الكر والفر ، بين القنابل المتفجرة ، والرصاص المتساقط كوابل المطر ، ثم تقوم الليل كله بلا طعام ولا منام ؟

— لست أدري يامختار ، وما جربت ذلك ولكنّ الذي أدريه هو أني خرجت مجاهداً في سبيل الله . ألم يقل لنا مدرس الدين ، ذلك الشهيد المرحوم : إذا دخل العدو أرضا للمسلمين صار الجهاد فرض عين على كل مسلم ومسلمة كفرض الصلاة ؟ .. أنسيت الحديث الذي علمنا إياه : « سئل رسول صلى الله عليه وسلم عن الرجل يقاتل شجاعة ويقاتل حمية ويقاتل رياء أي ذلك في سبيل الله ؟ فقال : من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله » ونحن خرجنا لإعلاء كلمة الله ، لا لدنيا ولا للمال ولا لجاه ولا دفاعاً عن حسب ولا أرض ولا وطن ، فاذا متنا فنحن الشهداء ، أنسيت الحديث الآخر ؟ إني لا أزال أحفظه ، رحم الله أستاذنا

— أي حديث ؟

— قوله صلى الله عليه وسلم : « ما أحد يدخل الجنة يحب أن يرجع إلى الدنيا وله ما على الأرض من شيء ، إلا الشهيد يتمنى أن يرجع إلى الدنيا فيقتل عشر مرات لما يرى من الكرامة»

— لا لم أنسه ، ليتنا نموت شهداء ، اللهم اكتب لنا الشهادة .

وملكهما حماس طاغ ، فأسرعا وهما ينشدان أنشودة الموت التي يحفظها المجاهدون كلهم ، ويلقونها بنغمة تهتز لها أوتار القلوب كلها ...

« أيها العصافير ! »

«طيري إلى منازلنا وبلغي الأمهات والأخوات أننا متنا في سبيل الله ، ومن أجل فلسطين »

« قولي لهن : إن أجسادنا لن تسكن اللحود الضيقة ، ولن تحويها الأرض المظلمة ، ولكنها ستسكن بطون القشاعم والنسور المحلقة في شعاع الشمس ، وبطون الذئاب الشاردة في الفضاء الأرحب »

« أما أرواحنا فسترقى إلى جنان الخلد »

« أما أسماؤنا فستكتب في تاريخ البطولة بأحرف من النور »

« أيتها العصافير ، طيرى إلى منازلنا فبلغى الأمهات والأخوات إرادتنا الأخيرة : هى أن يهيئن أطفالنا لخاتمة بارعة كخاتمتنا »

* * *

ساراً سحابة نهارهما فبلغا قرية مختار فى الساعة التى يعود فيها الرعاة من الجبال ، وتزدحم فيها النسوة على الينبوع ، وكان التعب والجوع قد هدّا عرفان هدًّا ، فاتجه به إلى أكبر دار فى القرية ، وكانت تلك دار مختار ، فجاز به (بوابة) من الحجر إلى ساحة واسعة فيها فرسان كريمان مرتبطان ، وثلاثة من الابل، وفى وسطها تل من العلف. فمشى به خلالها حتى انتهى إلى باب الدار فقرعه ، فخرج صبى فى التاسعة عرف عرفان منذ نظر إليه أنه أخو مختار ، فقد كانا متشابهين حتى ليصعب على المرء أن يفرق بينهما لولا السن ، ولولا دعج ظاهر فى عينى الصغير الكبيرتين اللتين تشبهان إذا فكر الصبى أو أطرق سبحات مقلتى ظبى شرود فصاح به مختار :

— أين أبوك يا نورى ؟

فأجاب الصبى بصوت غرد كأنه صوت بلبل :

— ذهب فى هذا الصباح إلى الجبل . لقد علم الثائرون بأن حملة كبيرة لم يروا مثلها ، ستتوجه تلقاء الجبل

فلما سمع ذلك عرفان نسى تعبه ، واستعاد نشاطه وأحس بقلبه يرقص فى صدره فرحاً بالمعركة ، وصاح بمختار :

— هلم بنا ، أسرع ، أين البنادق ؟

— حاضرة ! لقد اشتريت لك خير أنواع البنادق وأعددت لك مائتى رصاصة ، والخيل مربوطة فى الساحة ، اذهب يا نورى فر حمدان أن يعد الخيل وهات البنادق

فوثب الصبى ليذهب، ولكن امرأة فى الأربعين من عمرها ، سافرة على طريقة الفلاحين ، هذا السفور المحتشم الذى نرجو أن نستبدله بهذا التبرج الفضاح الذى نسميه (هنا) حجابا . . . استوقفته هذه المرأة وأقبلت على ابنها تقول :

— أدخل أولا

فأطاع مختار ودخل معه عرفان ، ينظر إليها وهى تعانقه وقد انفجرت بالبكاء

— أتبكين يا أماه ؟

— لالا . ولكنى لا أدرى هل أراك من بعد أم لا ؟

— ولكن ما بالك يا أماه ؟

— لا شىء ، لا شىء ، استودعك الله . . . وهذا الذى معك ، من هو ؟

— هذا صديقى عرفان ابن الوجيه الكبير ل . . .

— آه ، وأنت أيضا ياحبيبى ؟ أهلا ومهلاً ، وشرفتنا يابنى ، اللهم احفظ وسلم

— أشكرك ياخالة وأستودعك الله .

ماذا ؟ أتذهبون ؟ لا والله ، لقد مشيتم النهار بطوله ، أفجنونة أنا حتى أدعكم تصلونه بالليل ؟ لا والله . بل تنامون هنا وتذهبون إن شاء الله فى الصباح مع من بقى هنا من رجال القرية

— ولكن ياسيدتى

— لا والله ، لا أدعكم تقتلون أنفسكم ، لو كانت أمك هنا أ كانت ترضى عن ذهابك الآن ؟ أنا مثل أمك ياحبيبى . إن رفيق ابنى هو ابنى ، ثم إن المجاهدين بل المسلمين كلهم أسرة واحدة . . .

ودخلت فتاة صغيرة أصغر من نورى وبها من

أخويها مشابه ، غير أنها أدنى إلى البياض ، وكانت تلبس إزاراً أخضر وملتفة بمنديل أحمر يزين أطرافه طراز أصفر من القصب ، فلما رأت الفتى وقفت وأحجمت ، فصاحت بها أمها :

— أدخلي يا بنتي ، هذا أخوك عرفان ، ذاهب إلى الجهاد ، رحبي به ثم اذهبي فأعدي الطعام ، هيا حالاً . وأنتما فانزعا ثيابكما واغسلا وجهيكما وأيديكما . قم يانوري فأعد الماء وصب عليهما ، ثم اذهب فساعد أختك . هيا يا بنت أسرعي ؛ إنهما جائعان ...

* * *

نال التعب والسير الطويل وسهر الليلة الماضية من عرفان ، فلم يكد يضع رأسه على الوسادة حتى انحدر إلى قرارة نوم عميق ، لم يفق منه إلا سحراً حينما أيقظه مختار ليمشي إلى الجبل ، فنهض مسرعاً فتوضأ وصلى الصبح ، ثم لبس الثياب التي دفعها إليه مختار ، وأدار العقال على رأسه ، ثم حمل بندقيته واستوى على ظهر فرسه ، ليمشي إلى الجهاد ، وهو يحس لفرط سروره أن الدنيا على رحبها أضيق من أن تسعه ...

كان يظن أن الحرب من السهولة بحيث تكون كما قرأ في (قصة عنتر) فكان يتخيل أبداً كيف يبرز بعد ساعة إلى الميدان وينادي أنا عرفان ... فيصول فيه ويجول وينازل الفحول ، ثم يهجم على الآلاف المؤلفة ، فيقتل الرجل ثم يحمله فيضرب به الآخر ، ويطعن الطعنة فيصرع الفارس وفرسه ، ويضرب الضربة فتخترق الهامة وتقطع الدرع ، ثم تنزل إلى السرج فتقده هو والفرس قداً ...

خرج الرجال من القرية وهم قريب من مائة ، فيهم عشرون فارساً ، فسلكوا الشعاب الوعرة لئلا يلقوا على الطريق المطروق مايعوقهم عن غايتهم . وكانت وجهتهم جبل النار ، فانطلقوا ينشدون أنشودة النار بصوت كانت تضطرب له الجلاميد ، وتتوارى منه الأودية الرهيبة فزعاً ... الأنشودة التي معناها :

« يا جبل النار ... »

« هل درى من سماك في أول الزمان جبل النار أنها ستخرج منك النار التي تزهق البغي والظلم والاستعمار ؟ يا جبل النار ... »

« هل درى أن هذه الفئة من أبطالك ستأكل جيوش الدولة ذات الأساطيل ، كما تأكل النل من الحطب شعلة واحدة من النار ؟ يا جبل النار ... »

« هل دريت أنت يا جبل النار أن الأجيال الآتية ستتخذ منك حرماً للحرية مقدساً ، فتكون الشارة الحمراء والمنار للسارين في طريق الجهاد ؟ يا جبل النار »

« يا جبل النار ، صخورك الجحيم المتوقد في شعاع الشمس ، ولكن الله الذي وطأ لنا ذراها وسهل لنا صعابها ، وأسكننا منها أوكار النسور ، وربى السباع ، هو الذي أحال نارها برداً علينا وسلاماً ، فأنت جحيم الأعداء وأنت جنة لنا ، فهل اجتمعت إلا فيك الجنة والنار ؟ يا جبل النار ... »

« فيا جبل النار ، ثر واضطرم ، وليمتد لسان لهيبك ، ولتسقه رياح الشرق نحو الغرب ، وليحرق دور الظلم ومعاقل الاستعمار ، ولو سبحت في البحار يا جبل النار ... »

« يا جبل النار ، نحن أيضاً جبال من نار ، نحن الأعاصير المحرقة ، نحن البركان المتفجر ، نحن الحمم المتوقدة ، فمنذا يمد يده إلى الجحيم ليأخذ منه

جمرة ... ؟ يا جبل النار ، أنت اليوم حطين ، وكانا صلاح الدين ... يا جبل النار ! »

كان عرفان ينشد الأنشودة وهو رافع رأسه زهواً ، يظن أنه أوتى الخلافة ، أو أنه غدا خالداً أو قتيبة أو طارقاً ... كان وهو فى داره يخشى أن تصيبه شوكة ، ويألم إن لفحته نسمة باردة ، ويفزع من ذكر المرض ، فما باله الآن لا يجزع من الموت بل هو يسعى إليه ويريده ، ولا يأمل إلا الشهادة فى سبيل الله ؟ لقد هان عليه الأعداء وصغروا فى نظره حتى لقد خالهم الذباب أو أسراب النمل حينما وقف القوم وراء الصخور العالية ، ونظروا إلى الحملة وهى تجتاز الطريق البعيد كأنها خط أسود لا يبين له أول من آخر ، ولقد كان الجندى الواحد يراه فى بلده أكبر فى عينه من هؤلاء جميعاً

ورأى القوم يطلقون النار فأخرج بندقيته فأطلق منها الرصاصة الأولى ، ولم يصنع شيئاً ولكنه كبر في عين نفسه وأحس أنه أصبح رجلا حقاً ومجاهداً صدقاً ، وود لو يطير إلى الحملة حتى يسقط عليها ، ولكنه كفّ ووقف حين كفّ القوم ورأوا أنهم لن يصيبوا عدواً .. وساروا فى طريقهم إلى الظهيرة والحملة تبدو لهم عن بعد ثم تختفى وراء الصخور كأنما كانت تسايرهم أبداً وطفقوا ينظرون إليها فيرونها ثابتة لا تريم مكانها، حتى إذا أصبحت عند مفترق الطرق ، وبلغت سفوح الجبال وأقبلت تتسلقها رأى القوم الزلزال تزلزله الأرض من تحتها فتخرج أثقالها ، وينقلب عاليها سافلها ، ويغشى الجو بالدخان ، وكان ذلك كله فى لحظة سمعوا على أثرها الدوىّ الهائل الذى قصف فى الدنيا كأشد ما عرفت الدنيا من رعود ، فعلموا أن الثوار قد وضعوا (الألغام) على طول الطريق ، وتركوا الحملة تسعى إلى حتفها بظلفها فتحطمت تحطيماً ، وعلموا أن المعركة قد انتهت وكفى الله المؤمنين القتال[1] فارتدوا إلى القرية ، أما عرفان فكانت تتقاذفه عاطفتان الفرح بالنصر المؤزر ، والندم على أنه بات فى القرية فلم يحضر المعركة ولم تكتب له الشهادة فى سبيل الله فيدخل الجنة

* * *

بلغ عرفان وأصحابه القرية عند المساء ، فاذا كل شىء تبدل ، فلا الدنيا بالدنيا ، ولا الناس بالناس ، وإذا القرية قد هدمت كلها ، وأحرقت سقوفها وأبوابها ونوافذها ، فاختبل مختار وجنّ ، فعدا فرسه إلى داره ولحقه عرفان وبه مثل مابه ، فاذا الدار أكوام من التراب ، وإذا العلف قد أحرق ، والأشجار قد قطعت ، فدار فى أرجائها ينادي أخاه وأمه ، ويهتف بأخته ، فضاع صوته فى ضجيج الرجال وصراخ النساء فمشى يفتش صامتاً ينظر فى التراب ، وقد أدركه الخبل حقيقة فلم يعد يقوى على التفكير فى شىء ، وسلم أمره إلى الله ، وتبعه عرفان ينظر كما ينظر ، فاذا هو يرى ويا لهول ما يرى ، نورى ذلك الصبى صاحب العينين الفاتنتين الدعجاوين ... ملقى على باب المسجد قد مزقت حراب الأعداء جسده الأبيض الجميل وإلى جانبه أمه قد صرعتها رصاصة كسرت جمجمتها ...

فجذب مختاراً من يده حتى لا يرى ، ولكن مختاراً أحسّ بالأمر فنتر يده وأقبل ينظر فاذا هو يرى كل شىء : ضاع الباقى من وعيه فانحنى على أمه وأخيه يقبلهما ويمرغ وجهه بدمائهما ، ثم نهض متهافتاً فتعاون هو وعرفان على مواراتهما حتى إذا

(١) رواية صدق عن شاهد عيان

أقام فوقهما شبه قبر ، وما القرية كلها فى الحقيقة إلا قبر، وضع يده المغموسة بالدم على القبر ، وأقسم لينتقمن ... وأقسم عرفان !

وتركا أهل القرية يدفنون الموتى ، ويرفعون أوراق المصحف التى ألقيت على أرض المسجد وديست ، وغادراها تضج ببكاء الأطفال الذين ماتت أمهاتهم بالبنادق ، والأمهات اللائى قطع أبناؤهن بالحراب . وعادا مع الرجال إلى جبل الحرية المنيع ينشدون أنشودة الانتقام ...

« إلى جبل النار ، إلى جبل النار ... »

وكان مختار (يصف) لهم بصوت يكاد يقطر منه الدم ...

« لقد غرست شجرة الزيتون يا أبي بيدك ، وسقيتها كل يوم لتقطف منها الغصن الذي تجعلينه على رؤوس أبنائك فى موكب العرس . لقد بنيت الدار يا أبي بيمينك لتسكن فيها بنيك الذين تحبهم مع زوجاتهم ، فقطع الأقوياء الشجرة ، وهدموا الدار ، وقتلوا الأطفال ... »

وهم يرددون اللازمة : « إلى جبل النار ، إلى جبل النار »

— « أرأيتم أخي نوري ؟ لم يعد لعينيه سبحات مقلة ظبي شرود ، ولا لصوته رنة بلبل غرد . لقد قتلوه فها هي ذى جثته ملطخة بالوحل والدم . لقد نام إلى الأبد على يد أمه التى ذبحها الأقوياء المتمدنون »

— « إلى جبل النار ... إلى جبل النار »

— « أرأيتم كلام الله ، وبيت الله ؟ لقد مزقوا المصحف وهو كتاب الحق والنور ، وداسوه بأقدامهم[1] . لقد استحلوا حرمة المسجد ، وهو دار السلام ، وأقاموا فيه حرباً ، فماذا تنتظرون من الأقوياء المتمدينين بعد ماعبثوا بحرمة الدين وحرمة الانسانية البريئة ... ؟ فالى جبل النار »

— « إلى جبل النار ... إلي جبل النار »

— « هذه مأساة الأندلس ... ولكننا لم ننس مأساة الأندلس بعد ، ولن ندعها تعاد أبداً ، لا فى فلسطين ولا فى اسكندورن ، ولا فى بقعة من بقاع . وها نحن أولاء ذاهبون نحقق ما نقول ... »

— « إلى جبل النار ... إلى جبل النار »

— « يا أمي ، يا نوري ... يا أختي التى لا أدرى أين قبرها ، اهجعوا فى أمان ، فكلما سفك دم جديد نبتت فى القلوب بغضاء جديدة . . . كلا ، ما هى بالبغضاء : ما البغض ؟ ما العداوة ؟ إن العاطفة التى يحتويها اليوم صدر كل عربي ، بل كل مسلم ، شيء أكبر من البغض ، وأشد من الحقد ، وأبلغ من العداء — إنها عاطفة سوداء مبهمة ، عظيمة مخنقة تتوارثها القلوب ، فلا تزداد إلا سواداً وعظمة ورهبة ... »

— « فياجبل النار ثر واضطرم ، وليمتد لسان لهيبك ، ولتسقه رياح الشرق نحو الغرب وليحرق دور الظلم ، ومعاقل الاستعمار ، ولو سبحت فى البحار ، ياجبل النار »

— « يا جبل النار ، نحن أيضاً جبال من نار . نحن الأعاصير المحرقة ، نحن البركان المتفجر ، نحن الحمم المتوقدة ، فمنذا يمد يده إلى الجحيم ليأخذ منه جمرة ... ؟ يا جبل النار ، أنت اليوم حطين ، وكلنا صلاح الدين ، يا جبل النار »

— « إلى جبل النار ... إلى جبل النار »

« دمشق » علي الطنطاوي

(١) رواية مؤيدة بالصور الفوتوغرافية